المظاهر العمرانية في مدينة مَارِدَة الأندلسية من الفتح حتى السقوط (٩٤-٦٢٨ هـ/ ٧١٣- ١٢٣٠م)

م.د.برزان ميسر حامد احمد*

تأريخ التقديم: ٢٠١٢/٧/٢٤   تأريخ القبول:٢٠١٢/١٠/٣

المقدمـــــة

تعد دراسة المظاهر العمرانية للمدن الإسلامية بشكل عـام وفـي بـلاد الأندلس بشكل خاص، من الدراسات المهمة لما لها من اثر مهـم وفعـال فـي تاريخ الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، فالعمارة من مقومـات الحـضارة وعماد التفاعل الحضاري، وبالتالي فهي سمة بارزة من سمات دولة الإسلام في الأندلس، فقد كان للعرب المسلمين دورهم الواضح في نشأة العمـارة، حيـث حملوا معهم إلى المناطق التي حرروها أفكارهم المعمارية الناضجة، كما اتاحوا الفرصة للفنانين المهرة والبنائين والعمال غير العرب إن يبدعوا ويـساهموا مـع المعماريين العرب في إنضاج أساليب الفنون العمرانية المختلفة.

ومن هنا تاتي هذه الدراسة المتواضعة للحـديث عـن ابـرز المظـاهر العمرانية في مدينة لا تقل أهمية عن باقي مدن الأندلس الأخرى، آلا وهي مدينة ماردة التي عدت من كبرى مدن غربي الأندلس ومن أعظمها واشـدها منعـة. وبالرغم من ان جذور العمارة في مدينة مارة تعود في بعض اجزاءها إلى عهود قديمة قبل الفتح العربي الإسلامي وكذلك ما بعد الفتح، فان العمارة التي حـدثت أو استجدت في مدينة ماردة واحوازها تشكل في مجملها كماً ونوعاً اعظـم مـا

* قسم التاريخ/ كلية التربية/ جامعة الموصل

شهدته المدينة خلال الوجود العربي الإسلامي، وكانت الأساس لما جرى فيها من بناء وعمارة لاحقاً.

وقد تناولنا دراسة المظاهر العمرانية في المدينة خلال عصرها الإسلامي والتنوع الحضاري الذي عكس الاهتمامات الحضارية في كل مرافق الحياة من خلال استعراض منشائها الدينية المتمثلة بالمسجد الجامع والكنائس التي كانت معظمها قائمة قبل إن يدخلها العرب المسلمون واستمر بقاءها إلى ما بعد الفتح، ثم الحديث عن منشآتها المدنية التي تمثلت بالقصور والارباض (الاحياء) والشوارع، والقناطر والارحاء (المطاحن)، ومن ثم الاسواق والفنادق (الخانات) وغيرها من المنشآت المدنية الاخرى، واظهار مدى التطور والتقدم الذي احرزه الاندلسيون في هذا المجال. فضلاً عن دراسة المنشآت العسكرية التي تمثلت بالقلاع والحصون والاسوار وابوابها وابراجها، وغير ذلك من اشكال الحماية والتحصين، واظهار مدى تأثر العمارة العسكرية الإسلامية بالعمارة الرومانية والبيزنطية التي كانت سائدة في اسبانيا آنداك ومنها في مدينة ماردة. وتأتي دراسة ابرز الآثار والمعالم الباقية في مدينة ماردة نهاية لهذا البحث، حيث احتوت المدينة على طائفة من الآثار القديمة ولكنها آثار رومانية في معظمها، وهي دلالة على ما كانت عليه المدينة من المنعة والحصانة، وبالرغم من كونها تعد في نظر المسلمين اثاراً وهياكل وثنية تتعارض مع ما جاء به الدين الإسلامي الحنيف، إلا إن العرب المسلمون قد ابقوا عليها طيلة حكمهم للمدينة، مما يدل على مدى السياسة التي اتبعها المسلمون في التسامح مع الديانات الأخرى وعدم التعرض إلى ممتلكاتهم وآثارهم بسوء.

أولاً: الأوضاع العامة لمدينة ماردة:

١- التسمية:

يلفظ اسم مَاردة بفتح الميم ثم ألف وراء مهملة مكسورة ودال مهملة وهاء فيالآخر[١] وهو تأنيث الذي قبله مارد[٢]، وهي مدينة قديمة، ذكر الزهري[٣]: ((أنها من بنيان العمالقة))، وقال الرشاطي[٤]: ((ابتدأها أول

(١) القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي، **صبح الاعشى في صناعة الانشا**، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ومذيلة بتصوبيات واستدراكات وفهارس تفصيلية، القاهرة، وزارة الثقافة، دار الارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا توماس وشركاهء، د. ت، ٥/ ٢٢٤.

(٢) الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٧، ٥/ ٣٨؛ البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبد الحق، **مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع (وهو مختصر لكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي)**، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، مؤسسة عيسى البابي الحلبي وشركاهء، ١٩٥٤، ٣/ ١٢١٨.

(٣) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، **كتاب الجغرافيا وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب**، تحقيق: محمد حاج صادق، دمشق، منشورات المعهد الفرنسي، ١٩٥٨، ص٨٥؛ (والعمالقة ينسبون إلى عملاق بن لاوذ بن ازم بن سام بن نوح عليه السلام). ينظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، **مروج الذهب ومعاون الجوهر**، تحقيق: يوسف اسعد داغر، ط٤، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٨١، ٢/١٢.

(٤) أبو محمد عبدالله بن علي بن عبدالله اللخمي الاندلسي، **اقتباس الانوار والتماس الازهار في انساب الصحابة ورواة الاثار**، وضع حواشيه: محمد سالم هاشم، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ١٩٩٩، ص٣٦.

القياصر وأكملها ثاني القياصرة))، وأشار إلى قدمها ابن الكردبوس[١]، فوصفها بأنها: ((مدينة قديمة فيها آثار رومانية)). كما وصفها ابن عذاري[٢] بأنها: ((كانت دار ملك في سالف الأيام، وكانت فيها آثار عجيبة، وقنطرة، وقصور، وكنائس تفوق وصف الناظرين، وهي إحدى القواعد الأربع بالأندلس التي ابتناها اكتبيان قيصر)).

ومدينة ماردة كانت دار مملكة لماردة بنت هرسوس الملك[٣]، وربما سميت باسمها. بينما يشير عنان[٤] إلى أنها كانت في العصر الروماني تسمى بـ

---

(١) أبو مروان عبدالملك التوزري، **تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط**، نصان جديدان، تحقيق: احمد مختار العبادي، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧١، ص١٤٧.

(٢) أبو العباس احمد بن محمد المراكشي، **البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة: ج. س كولان وليفي بروفنسال، ط٢، بيروت – لبنان، دار الثقافة، ١٩٨٠، ٢/ ١٤.

(٣) الادريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن ادريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف، **نزهة المشتاق في اختراق الافاق**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤، ٢/ ٥٤٥؛ الحميري، محمد بن عبدالمنعم، **الروض المعطار في خبر الاقطار**، تحقيق: احسان عباس، ط٢، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥، ص٥١٨؛ سالم، سحر السيد عبد العزيز، **تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي**، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩١، ١/ ٢١٢؛ ارسلان، شكيب، **الحلل السندسية في الاخبار والاثار الأندلسية**، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د. ت، ١/ ٨٩؛ حتاملة، محمد عبده، **مؤسوعة الديار الأندلسية**، ط١، عمان – الاردن، المكتبة الوطنية، ١٩٩٩، ٢/ ٩٨٧.

(٤) محمد عبدالله، **الاثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال (دراسة تاريخية اثرية)**، ط٢، القاهرة، مؤسسة الخانجي، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، ١٩٦١، ص٣٨٠.

(Augusta Emerita) ومن مقطعها الثاني اشتق اسمها الأندلسي ((مـــاردة)). ومعناها باللاتيني مسكن الأشراف[١].

وترجح سحر سالم[٢]، أن مؤسس ماردة هو اغسطس قيــصر، وكـــان ذلك في عام ٢٤ قبل الميلاد. ((وكانت مدينة ينزلها الملوك الأوائل، فكثرت بها آثارهم. . . واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً. . . ثم دخلـــت امة القوط فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من صاحب رومه. . . إلى أن دخـــل عليهم الإسلام، وكان آخرهم لذريق)) [٣].

٢- الموقع الجغرافي وطبيعة المناخ:

لدراسة الظواهر الحضرية عامة والمدن خاصة، لابد من تحديد الموقـــع الجغرافي، فهو من العناصر المهمة لهذه الدراسة. وعلى هذا الأساس حظي هذا العنصر باهتمامات الجغرافيين القدامى ســـواء مـــن الإغريـــق أو الرومـــان أو المسلمين، لغرض دراسة الظاهرة وتحديدها[٤].

(١) الحميري، **الروض المعطار**، ص٥١٨؛ سحر سالم، **تاريخ بطليـــوس الإســـلامية**، ١/ ٢١٤، حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**، ٢/ ٩٨٩.

(٢) **تاريخ بطليوس الإسلامية**، ٢١٢/١.

(٣) البكري، أبو عبيدالله عبدالله بن عبد العزيز، **جغرافية الأندلس واروبا (من كتاب المسالك والممالك)**، تحقيق: عبدالرحمن علي الحجي، ط١، بيـــروت، دار الارشـــاد للطباعـــة والنشر والتوزيع، ١٩٦٨، ص١١٩؛ الحموي، **معجم البلـــدان**، ٥/ ٣٨؛ الحميـــري، **الروض المعطار**، ص٥١٨؛ المقري، أبو العباس شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: احسان عباس، طبعة جديدة، بيـــروت، دار صادر، ١٩٩٧، ١/ ١٣٨.

(٤) الجمل، محمود جلال الدين، **اوربا في مجرى التاريخ (دراســـة جغرافيـــة)**، القـــاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩، ص٢٢-٢٥؛ السامرائي، خليل إبراهيم، **دراسات في تاريخ الفكر العربي**، الموصل، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص٢٢٥-٢٣٠.

تقع معظم بلاد الأندلس في الإقليم الخامس[١] وقاعدته مدينة ماردة[٢] موضوع بحثنا، حيث يبلغ طول هذه المدينة ١٠ درجات و ٥٥ دقيقة[٣]، وعرضها ٣٩ درجة ودقائق[٤]، وماردة مدينة أزلية، ولها ماءٌ مجلوب تحيّر صنعته[٥]. قال عنها ابن سعيد[٦] برواية الرازي هي: ((إحدى القواعد التي بنتها ملوك العجم للقرار، وفيها من اظهار القدرة الماء المجتلب المحجوب عليه بأبنية أعجزت الصانعين صنعتها)).

---

(١) **الإقليم الخامس:** هو احد الاقاليم السبعة التي قسمت الكرة الارضية المستديرة (الكروية) الشكل المسكون منها دون الربع، وهذا الربع ينقسم إلى قسمين براً وبحراً، وكل ربع ينقسم إلى سبعة اقسام يسمى كل قسم منها اقليماً. ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، ١/ ٢٥-٢٦؛ القلقشندي، **صبح الاعشى**، ٥/ ٢٢١، ٢٢٤.

(٢) ابن صاعد التغلبي، أبو القاسم صاعد بن احمد، **طبقات الامم**، النجف، منشورات المكتبة الحيدرية، ١٩٦٧، ص٨٣؛ البكري، **جغرافية الأندلس واوربا**، ص٦٣؛ التوزري، محمد بن الشباط، **وصف الأندلس وصقلية من كتاب صلة السمط وسمة المرط**، تحقيق: احمد مختار العبادي، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧١، ص١٢٩؛ مؤنس، حسين، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، مدريد، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٦٧، ص٩٣.

(٣) اهتم المنجمون في تحديد الطول والعرض، فالدرجة قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة من الفلك وتنقسم الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية. ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، ١/ ٣٩.

(٤) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**، تحقيق: خوان قرنيط خينيس، تطوان – المغرب، معهد مولاي الحسن/ ١٩٥٨، ص ١٠٠؛ **كتاب الجغرافية**، تحقيق: إسماعيل العربي، ط٢، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٢، ص١٦٦.

(٥) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بـ ، **تقويم البلدان**، د. م، د. ت، واعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد، ص١٧٣؛ القلقشندي، **صبح الاعشى**، ٥/ ٢٢٤.

(٦) **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، طبعة ثانية منقحة، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١/ ٣٦١.

وتقع مدينة ماردة ما بين الغرب والشمال من مدينة قرطبة، وتبعد عن قرطبة مسيرة خمسة أيام للراكب، وعشرة أيام للماشي. وعن بطليوس[١] تبعد مسافة عشرين ميلاً(٢) إلى الشرق منها على الضفة الشمالية لنهر وادي يانه (Guadiana) (٣). وهي قاعدة بلاد الجوف(٤) (غرب الأندلس)، ومن كبرى مدن غربي الأندلس(٥)

---

(١) **بطليوس:** من اقليم ماردة بينهما اربعون ميلاً، وهي مدينة حديثة بناها عبدالرحمن بن مروان المعروف بـ الجليقي، وهي مدينة جليلة في بسيط من الأرض ولها ربض كبير، ومنها إلى قرطبة ست مراحل. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص٩٣؛ البكري، **جغرافية الأندلس واوربا**، ص١٢١ – ١٢٢.

(٢) البكري، **جغرافية الأندلس واوربا**، ص١١٩؛ الحموي، **معجم البلدان**، ٥/ ٣٨-٣٩؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص٥١٨؛ ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص١٤٧؛ حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**، ٢/ ٩٨٧؛ سحر سالم، **تاريخ بطليوس الإسلامية**، ١/ ٢١٤.

(٣) البكري، **جغرافية الأندلس واوربا**، ص١١٩ هامش رقم (٢)؛ الزهري، **كتاب الجغرافيا**، ص٨٦؛ حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**، ٢/ ٩٨٧.

(٤) المقري، **نفح الطيب**، ٤/ ٤٦٦؛ بنعبد الله، عبد العزيز، **الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية**، المغرب، مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٧٧، ملحق ٢، ص٢٥٨.

(٥) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، **المقتبس في اخبار بلد الأندلس (قطعة تؤرخ للسنوات الثلاثين الأولى من عهد عبدالرحمن الناصر)**، تحقيق: شالميتا واخرون، مدريد والرباط، المعهد الاسباني العربي للثقافة وكلية الآداب، ١٩٧٩، ص١٢٠؛ حتاملة، محمد عبده، **الأندلس، التاريخ والحضارة والمحنة (دراسة شاملة)** عمان، الاردن، مطابع الدستور التجارية، ٢٠٠٠، ص٣٥٩.

ومن اعظمها واشدها منعة[١]. تقع في بسيط اخضر وافر الخصب، ذات شوارع طويلة، وميادين عديدة[٢]، ويحيط بها سور عرضه اثنا عشر ذراعاً وارتفاعه ثمانية عشر ذراعاً[٣]، وعلى بابها مما يلي الغرب حنايا متقنة البنيان عددها ثلاثمائة وستون حنية، وفي وسط قنطرتها برج محني ((يسلك تحته من سلك في القنطرة)) [٤]. ومن عجائبها الأرجُلات وهي أعمدة من رخام طول كل عمود منها ثلاثون ذراعاً، وعلى رأس كل عمود عمود ثان، وبين كل عمودين عشرون ذراعاً، وبينهما من رأس العمود إلى رأس العمود التالي عمود مجوف. وهذه الارجُلات ترتفع في الهواء، ويجري الماء فوقها إلى مكان يعرف بالقرجونة. والقرجونة مكان بديع في وسط أقواس ترتفع على أعمدة، وفي أعلاها انابيب تصب الماء في حوض من الرخام الأبيض. وفي أعلى الأقواس

---

(١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، **صورة الأرض**، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩، ص١٠٦؛ الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، **مسالك الممالك**، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، الادارة العامة للثقافة، ١٩٦١، ص٣٦؛ مؤنس، حسين، **فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الاموية ٧١١-٧٥٦م)**، ط٣، القاهرة، دار الارشاد، ٢٠٠٥، ص٤٤٨.

(٢) عنان، **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٠.

(٣) البكري، **جغرافية الأندلس واوربا**، ص١١٩؛ الحجي، عبد الرحمن علي، **التاريخ الاندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧ هـ/ ٧١١ – ١٤٩٢م**، ط٧، دمشق، دار القلم، ٢٠١٠، ص٧٨؛ حتاملة، **موسوعة الديار الاندلسية**، ٢/ ٩٨٩.

(٤) الحميري، **الروض المعطار**، ص٥١٨؛ ويقارن: سحر سالم، **تاريخ بطليوس الإسلامية**، ١/ ٢١٣.

غرف ومجالس ومقاصير كان يجلس فيها الملوك للفرجة[١]، ففي ماردة بنيان متقن، ورخام معجب[٢].

وفي قصبة ماردة قصور (قلاع) خربة، وفيها دار يقال لها: دار الطبيخ وهي في ظاهر القصر، وكان الماء يأتي إلى دار الطبيخ في ساقية ما تزال آثارها باقية إلى اليوم، وكانت تستخدم وسيلة لنقل الطعام، إذ توضع صحاف من الذهب والفضة بأنواع الطعام في تلك الساقية على الماء حتى تخرج بين يدي الملكة، فترفع على الموائد، ثم إذا فرغ ما فيها توضع في الساقية فتستدير إلى أن تصل إلى يد الطباخ بدار الطبخ، فيرفعها بعد غسلها، ثم يمر باقي الماء في سروب القصر[٣].

ويوجد في الجنوب من سور المدينة قصر آخر صغير، حيث ذكر الادريسي[٤]، أن فيه برجاً كانت تُعلّق عليه مرآة كانت الملكة ماردة تستخدمها، ومحيط هذا البرج عشرون شبراً، وكان يدور على حرفه. وكان دورانه قائماً، ويقال إنما صنعته ماردة لتحاكي به مرآة ذي القرنين التي وضعها في منارة الاسكندرية.

وقد جمعت مدينة ماردة محاسن كثيرة، فقد أشار ياقوت الحموي[٥] إلى أنها: ((كورة واسعة من نواحي الأندلس متصلة بحوز فريش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة، وإحدى القواعد التي تخيرّها الملوك للسكنى من

---

(١) الزهري، **كتاب الجغرافيا**، ص٨٦؛ الحموي، **معجم البلدان**، ٥/ ٣٩؛ حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**، ٢/ ٩٨٩.

(٢) الرشاطي، **اقتباس الانوار**، ص٣٦.

(٣) الادريسي، **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٤٥-٥٤٦؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص٥١٨-٥١٩؛ ارسلان، **الحلل السندسية**، ١/ ٨٩ – ٩٠؛ سحر سالم، **تاريخ بطليوس الإسلامية**، ١/ ٢١٢ – ٢١٣.

(٤) **نزهة المشتاق**، ٢/ ٤٥٦؛ وينظر: ارسلان، **الحلل السندسية**، ١/ ٩٠.

(٥) **معجم البلدان**، ٥/ ٣٨ – ٣٩؛ وينظر: البغدادي، **مراصد الاطلاع**، ٣/ ١٢١٨.

القياصرة والروم)). وذكر المقري[١] أنها: ((ذات عــزّ ومنعــة، وفيهــا آثــار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر، فائقة الوصف. . .)).

ومن أعمال كورة ماردة التي أشارت إليها بعض المصادر[٢]، مدينــة بطليــوس ويابرة[٣] وترجيلة[٤] وقورية[٥] وقرمس[٦]. كما كان للمدينة ايــضاً العديــد مــن الحصون التابعة لها، فقد ذكر كل من البكري والحموي[٧] أن لها حصوناً كثيرة،

(١) **نفح الطيب،** ١/ ٢٧٠.

(٢) الادريسي، **نزهة المشتاق،** ٢/ ٥٥٠؛ المقري، **نفح الطيب،** ١/ ١٦٧.

(٣) **يابرة:** مدينة كبيرة عامرة بالناس، ولها سور وقصبة ومسجد جامع، تقع إلى الشمال من باجة والى الجنوب الشرقي من لشبونة على مقربة من بطليوس، وقد اعتبرها ابن سعيد من المدن المشهورة في المملكة البطليوسية. ينظر: **المغرب في حلى المغرب،** ١/ ٣٧٤.

(٤) **ترجيلة:** ويسميها الادريسي ترجالة، من أعمال مدينة ماردة تقع بالقرب من بطليوس، بينها وبين قرطبة خمسة أيام، وصفت بأنها مدينة كبيرة آهلة بالسكان وبها اسواق عامرة واسوار منيعة، تبعد عن مدينة ماردة حوالي ٩٠كم باتجاه الشمال. ينظر: **نزهة المشتاق،** ٢/ ٥٥٠.

(٥) **قورية:** مدينة كبيرة من نواحي ماردة، ازلية النباء لها سور منيع وضياع طيبة عجيبة واصناف كثيرة من الفواكه واكثرها الكروم وشجر التين، بينها وبين قنطرة السيف مرحلتان خفيفتان. ينظر الادريسي، **نزهة المشتاق،** ٢/ ٥٤٧؛ الحميري، **الروض المعطار،** ص٤٨٥.

(٦) **قرمس:** بلد من أعمال ماردة بالأندلس، وقد تفرد الحموي بالاشارة إليه. ينظر: **معجم البلدان،** ٤/ ٣٣٠.

(٧) **جغرافية الأندلس واوربا،** ص١٢٠؛ **معجم البلدان،** ٥/ ٣٩.

ومن هذه الحصون، حصن أم جعفر[١] وحصن أم غزالة [٢] وحصن الصخرة[٣]، وحصن الجناح[٤] وحصن سنت أقروج[٥]، وحصن الحنش[٦]، وحصن مكناسة[٧].

أما فيما يخص المناخ، يمكن القول بان سيادة الجفاف الذي يغلب على المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية بوجه عام، ربما كان ذلك سبباً في تسمية

---

(١) **حصن أم جعفر:** إحدى الحصون التابعة لمدينة ماردة من بلد الجوف (غرب الأندلس) وكان يمثل احد قواعد قبيلة نفزة البربرية في تلك الجهة. ينظر: البكري، **جغرافية الأندلس واوروبا**، ص١٢٠؛ ابن عبد الحق البغدادي، **مراصد الاطلاع**، ٣/ ١٣١٧.

(٢) **حصن أم غزالة:** من الحصون المهمة، يرجع إلى أصول رومانية إذ كان مجرد محطة في الجادة الرومانية الممتدة ما بين ماردة وسرقسطة. ونستدل من نص لابن حيان أن هذا الحصن كان يقع قريبا من حصن مدلين وبالتحديد بين سهلة الاصنام وحصن مدلين. ينظر: **المقتبس**، تحقيق: شالميتا واخرون، ص١٢٠.

(٣) **حصن الصخرة:** من الحصون المهمة التابعة لمدينة ماردة. ينظر: البكري، **جغرافية الأندلس واوروبا**، ص١٢٠.

(٤) **حصن الجناح:** أشار إليه كل من البكري والحموي بأنه من أعمال ماردة بالأندلس. ينظر: **جغرافية الأندلس واوروبا**، ص١٢٠؛ **معجم البلدان**، ٢/ ١٦٦؛ **المشترك وصفاً والمفترق صقعاً**، ط٢، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٦، ص١٠٨.

(٥) **حصن سنت اقروج:** من الحصون المهمة التابعة لمدينة ماردة، يبلغ ارتفاعه فوق مستوى سطح البحر ٨٤م، ويقع على مقربة من مخرج الجادة الرومانية بالقرب من مدينة ترجيلة.

(٦) **حصن الحنش:** يقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة ماردة على بعد ٢٠ كم، يصفه الادريسي بالمناعة والشموخ. ينظر: **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٨١.

(٧) **حصن مكناسة:** من أهم الحصون التابعة لمدينة ماردة، يقع على نهر وادي يانه، وكان يسمى ايضاً مكناسة الاصنام. ينظر: الحموي، **معجم البلدان** ٥/ ١٨١؛ **المشترك وصفاً والمفترق صقعاً**، ص٤٠٢.

اراضي غرب اسبانيا باسترمادورا (Extramadora) وتعني شديد الجفاف[١]، غير أن جميع المدن المطلة والقريبة من المحيط الاطلسي، والتي من بينها مدينة ماردة تتمتع عادة بطقس معتدل نسبياً نتيجة ارتفاع نسبة الرطوبة وغلبة السحب، وهما من خصائص هذا الاقليم[٢].

حيث تهب على تلك المنطقة الرياح الغربية المحملة برطوبة المحيط الاطلسي[٣]، والتي يطلق عليها الرياح الغربية المتغيرة[٤]، وتسقط الامطار عادة ابتداءً من النصف الثاني من شهر ايلول، ويستمر تساقطها حتى أواخر شهر مايس[٥]، وتتراوح كمية الامطار الساقطة عليها ما بين (٧٠٠-٨٠٠ ملم)، وتزداد في المناطق المرتفعة حتى تصل إلى (١٠٠٠ – ١٥٠٠ ملم) ومتوسط حرارة الشتاء تقرب من (١٢ ْ – ١٣. ٥ ْ)[٦]. أما الضغط الجوي فيبلغ اقصى انخفاض له في نهاية كانون الثاني، ويبدأ بالارتفاع تدريجياً من شهر حزيران ثم

(١) أبو مصطفى، كمال السيد، **تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين**، الاسكندرية، مكتبة ومطبعة الاشعاع، مركز الاسكندرية للكتاب، د. ت، ص٨٩.

(٢) موسى، عز الدين عمر احمد، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٣، ص٥٢.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٣.

(٤) الخشاب وآخرون، وفيق حسين، **النمط الجغرافي للعالم القديم (النمط الجغرافي الاوربي – دراسة في الجغرافية الاقليمية)**، بغداد، ١٩٧٨، ص٢٧، ٣٧.

(٥) أبو مصطفى، **تاريخ الأندلس الاقتصادي**، ص٨٩.

(٦) جودت، جودت حسنين، **الجغرافية الاقليمية**، بيروت، جامعة بيروت العربية، ١٩٦٦ – ١٩٦٧، ص١٠٩؛ المشهداني والعاني، إبراهيم عبد الجبار وخطاب صكار، **جغرافية الوطن العربي**، جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٩٠، ص١١٤؛ احمد، حسن عبد العزيز، **جغرافية اوربا (دراسة موضوعية)**، الرياض، دار المريخ للنشر، ١٩٥٢، ص٥٥، ٥٦.

ينخفض قليلاً ويعود إلى الارتفاع تدريجياً في شهر تشرين الأول حتى كانون الثاني[١].

٣- فتح مدينة ماردة ٩٤ هـ/ ٧١٣ م:

بعد أن تمكن القائد موسى بن نصير من فتح مدينة اشبيلية (Sevilla) واصل سيره نحو مدينة ماردة سالكاً الطريق الروماني القديم ومتتبعاً وادي نهر يانة[٢]، وكان ذلك في سنة ٩٤ هـ/ ٧١٣م، وهو تاريخ يمكن استنتاجه من روايات المؤرخين الذين خلطوا كما يبدو بين بداية حصارها، وتاريخ استسلامها للمسلمين، ففي حديثه عن دخول موسى بن نصير الأندلس، يقول ابن القوطية[٣]: ((وكان دخوله [يقصد موسى بن نصير] بعد طارق على سنة، وتقدم إلى شذونة[٤] ثم إلى اشبيلية فافتتحها، ثم قصد من اشبيلية إلى

---

(١) حتاملة، محمد عبده، **ايبيريا قبل مجي العرب المسلمين**، عمان – الاردن، مطابع المؤسسة الاردنية، ١٩٩٦، ص٦٤.

(٢) العبادي، احمد مختار، **دراسات في تاريخ المغرب والاندلس**، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢، ص٣٧، طه، عبد الواحد ذنون، **الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقيا والاندلس**، ط١، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٢، ص١٧٧.

(٣) أبو بكر محمد بن عمر، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق: عبدالله انيس الطباع، بيروت، دار النشر للجامعيين، ١٩٥٧، ص٩-١٠.

(٤) **شذونة (Sidonia)**: وتكتب ارشذونة ومعناها معصرة الزيت، مدينة بالأندلس، وهي قاعدة كورة رية ومنزل الولاة والعمال، وهي بقبيلة قرطبة على نحو ٤٠ كم جنوب شرقي مدينة قادس، ولها مدن كثيرة وبها أثار قديمة. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص٢٥؛ ابن الخطيب، لسان الدين بن محمد بن عبدالله، **مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس (مجموعة من رسائله)**، نشر وتحقيق: احمد مختار العبادي، الاسكندرية، مطبعة جامعة الاسكندرية، ١٩٥٨، ص٩٤ هامش رقم (٤).

لقنت[١] إلى الموضع المعروف بفج موسى في اول لقنت إلى ماردة، فقال أهل العلم: أن أهل ماردة صالحوه ولم يأخذهم عنوة)). ويذكر ابن الكردبوس[٢]، أن موسى بن نصير حاصرها ((وفتحها صلحاً سنة ٩٣هـ))، أما صاحب كتاب أخبار مجموعة وابن عذاري والمقري[٣]، فيؤكدون أنها فتحت في الأول من شوال سنة ٩٤ هـ/ ٣٠ حزيران ٧١٣م، وهو ما أيده مؤنس والحجي[٤].

ويبدو أن موسى بن نصير بدأ بحصار ماردة سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢م، واستمر الحصار أشهراً[٥] امتدت حتى تمكن من فتحها في التاريخ المذكور. ولم يكن فتح مدينة ماردة سهلاً، وخاصة إذا علمنا أنها مدينة حصينة منيعة الأسوار[٦]. وعندما أقدم موسى بن نصير لمحاصرتها خرج أهلها للدفاع عنها خارج الأسوار، فجرى القتال على بعد ميل أو أكثر قتالاً شديداً، ونالوا من المسلمين وآذوهم، وكانوا كما يبدو من رواية المقري[٧]، يهجمون على دفعات

---

(١) **لقنت:** من بلاد الأندلس بينها وبين دانية على الساحل سبعون ميلاً، وهي مدينة صغيرة عامرة وبها سوق ومسجد جامع ومنبر ويتجهز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر. وهي غير لقنت الواقعة في حوض البحر المتوسط على الشاطئ الشرقي من شبه جزيرة الأندلس ينظر: الادريسي، **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٥٨؛ الحميري، **الروض المعطار**، ٥١١؛ ارسلان، **الحلل السندسية**، ١/١١١-١١٢.

(٢) **تاريخ الأندلس**، ص١٤٧.

(٣) مجهول، **اخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم**، نشر: لافونتي القنطرة، مدريد، الاكاديمية التاريخية الملكية، ١٨٦٧م، واعادت طبعه دار اسامة بدمشق، د. ت، ص١٧-١٨؛ **البيان المغرب**، ٢/ ١٥؛ **نفح الطيب**، ١/ ٢٧٠-٢٧١.

(٤) **فجر الاندلس**، ص٨٦؛ **التاريخ الاندلسي**، ٧٩.

(٥) مجهول، **اخبار مجموعة**، ص١٧؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ١٤/٢.

(٦) مجهول، **اخبار مجموعة**، ص١٦-١٧؛ الادريسي، **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٤٥؛ المقري، **نفح الطيب**، ١/ ٢٧٠ -٢٧١.

(٧) **نفح الطيب**، ١/ ٢٧٠.

ثم يعودون للتحصن في المدينة. ولكن عبد الرحمن علي الحجي[١] يستبعد هذا الاحتمال معتمداً على نص اورده صاحب كتاب اخبار مجموعة[٢] ما يدحض هذه الرواية إذ يقول: ((خرجوا إليه وزحمهم دفعة فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر قتالاً شديداً))، حتى استطاع الانتصار عليهم حسب ما يؤكد لنا ابن عذاري[٣]: ((فخرج أهلها إلى حربه نحو الميل منها، فحاربهم حتى صرفهم إلى المدينة)).

ويفهم من هذه الرواية أن النصر كان حليف المسلمين، مما إضطر أهل ماردة إلى الالتجاء إلى داخل الاسوار للاحتماء بها، إذ اسهمت الاسوار اسهاماً بارزاً في تأجيل فتح المدينة مدة أطول[٤]، مما حدا بموسى بن نصير إلى تغيير خططه الحربية في استخدام الكمائن بالرجال والخيل ليلاً في مخارق صخور السور التي انقضت على حامية البلدة، حين اخرجوها للقتال، حتى قتل منهم كثيراً وهرب الباقون إلى المدينة للتحصن باسوارها[٥].

استمر حصار مدينة ماردة عدة أشهر استخدموا خلالها الأسلحة الحربية لاقتحام أسوارها، حيث قاموا بصنع دبابة ساروا بها إلى برج من أبراج السور لأحداث ثغرة فيه وعملوا حتى وصلوا إلى طبقة من الصخور الصلدة فيه تسمى

---

(١) **التاريخ الاندلسي**، ص٧٨.

(٢) مجهول، ص١٦؛ ويقارن: ابن عذاري، **البيان المغرب**، ٢/ ١٤.

(٣) **البيان المغرب**، ٢/ ١٤.

(٤) الأنصاري، عمر بن إبراهيم الاوسي، **تفريج الكروب في تدبير الحروب**، تحقيق وترجمة: جورج سكانلون، القاهرة، منشورات الجامعة الامريكية، طبع دار المعارف بمصر، ١٩٦١، ص١٠-١١.

(٥) مجهول، **اخبار مجموعة**، ص١٧؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ٢/ ١٥؛ عنان، محمد عبدالله، **دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول – القسم الأول (من الفتح إلى بداية عهد الناصر)**، ط٣، القاهرة، مؤسسة الخانجي، ١٩٦٠، ص٥٢.

بلسان العجم ((الاشه ماشه))[١] أو ((اللاشه ماشه)) بلسان أهل الأندلس[٢]، فوثب عليهم أهل ماردة في حين غفلة، فاستشهد من كان تحت الدبابة، فسمي ذلك البرج ((برج الشهداء))[٣].

وعند ذلك حميت النفوس واشتد القتال وكثر القتل حتى اجبروا أهل ماردة للاستجابة إلى طلب الصلح حينما ((دعا القوم إلى السلم، فترسل إليه في تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الأمان)) [٤]، فتم بذلك الصلح وكتب بذلك عهداً لهم فيه ضمان ومصلحة الطرف الآخر، وهذا شأن العرب المسلمين في جميع فتوحاتهم وعهودهم، فقد ضمنوا للسكان الأمان، وعدم التعرض لأي فرد في المدينة، أو ينوي المغادرة منها إلى أي مكان آخر[٥].

وبعد أن فتح موسى مدينة ماردة أقام بها شهراً يرتب أحوالها، وينظم أمورها، ويريح جنده من العناء الذي تكبدوه من جراء فتحها، ووجه منها ابنه عبد العزيز لإعادة فتح اشبيلية التي كانت فلول القوط قد تجمعت فيها قادمة من

---

(١) المقري، **نفح الطيب**، ١/ ٢٧٠؛ مؤنس، **فجر الأندلس**، ص٨٦؛ الحجي، **التاريخ الاندلسي**، ص٧٩؛ طه، **الفتح والاستقرار**، ص١٧٨.
(٢) مجهول، **اخبار مجموعة**، ص١٧؛ الحجي، **التاريخ الاندلسي**، ص٧٩.
(٣) مجهول، **اخبار مجموعة**، ص١٧؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ٢/ ١٥؛ المقري، **نفح الطيب**، ١/ ٢٧٠.
(٤) المقري، **نفح الطيب**، ١/ ٢٧٠؛ ويقارن: ابن عذاري، **البيان المغرب**، ١/ ١٥.
(٥) الحجي، **التاريخ الاندلسي**، ص٧٩؛ طه، **الفتح والاستقرار**، ص١٧٨؛
Dozy, Reinhart, Recherches Sur l Histoire et la Litterature de l Espagne. Vol. I (Amsterdam, 1965) p. 55.

لبلة[١] وباجة[٢] مستغلة انشغال موسى بحصار ماردة، فأعاد عبد العزيز فتح اشبيلية[٣].

وكان اغلب سكان ماردة في العهود الأولى من فتحها[٤]، هم من المولدين[٥] والمستعربين[٦]. كما استقر العديد من البربر في المنطقة الغربية التي

---

(١) **لبلة:** قصبة كورة بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل اكشونبة وهي شرق من اكشونبة وغرب من قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق اشبيلية خمسة ايام واربعة واربعون فرسخاً، وهي برية بحرية غزيرة الفضائل والثمر والزرع والشجر. ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، ٥/ ١٠؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص٥٠٨.

(٢) **باجة:** من المدن القديمة بالأندلس، بنيت في أيام الاقاصرة، بينها وبين قرطبة مائة فرسخ، لها معاقل موصوفة بالمنعة والحصانة، وهي غير باجة القمح بافريقية. ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، ٣١٤/١؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص٧٥.

(٣) مجهول، **اخبار مجموعة**، ص١٨؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ١٥/٢؛ الحجي، **التاريخ الاندلسي**، ص٧٩-٨٠؛ مؤنس، **فجر الأندلس**، ص٨٨؛ حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**، ٢/ ٩٩٢؛ طه، **الفتح والاستقرار**، ص١٨٠.

(٤) ابن الاثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم، **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥، ١٢٥/٥؛ عنان، **من الفتح إلى بداية عهد الناصر**، ص٦٩-٧٠؛ حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**، ٢/ ٩٩٣.

(٥) **المولدين:** الجيل الذي ظهر من عملية المصاهرة بين المسلمين الفاتحين وسكان البلاد الاصليين. ينظر: ابن الابار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، **الحلة السيراء**، تحقيق: حسين مؤنس، ط١، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣، ١/ ٤٩؛ مؤنس، **فجر الأندلس**، ص٣٤٤؛ سالم، السيد عبد العزيز، **تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة**، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦١، ص١٢٨.

(٦) **المستعربون:** هم نصارى الأسبان، الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون اللغة العربية مع احتفاظهم بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم ولذلك عرفوا بالمستعربين. ينظر: سالم، **تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس**، ص١٣٠؛ مؤنس، **فجر الأندلس**، ص٣٤١ – ٣٤٢.

كانت تدعى من قبل الكتاب العرب باسم ارض الجوف[(١)]، ومنها مدينة مـاردة، حيث كان عدد البربر في هذه المنطقة كبيراً للغاية بحيث نجد ابن حيان[(٢)] يطلـق عليها اسم بلاد البربر فيقول أن:((ارض الجوف بلاد البرابر)) وكـان معظمهـم ينتمي إلى مصمودة ومكناسة وهوارة وكتامة[(٣)].

ثانياً خطط مدينة ماردة العمرانية:

تعد ظاهرة العمارة من ابرز الظواهر في الحضارة العربية الإسـلامية، وقد أثبتت الآثار التي خلفتها لنا الحضارة الأندلسية فـي مدينـة مـاردة ومـدن الأندلس الأخرى، مدى التطور والتقدم الـذي أحـرزه الأندلـسيون فـي هـذا المجال[(٤)]، وزيادة في ذلك فان التقاليد المعمارية والهندسية في مـدن الأنـدلس ومنها مدينة ماردة، بقيت واضحة المعالم على الرغم من طول الفتـرة الزمنيـة عليها، والتخريب المتعمد من جانب أعداء العرب من الطامعين والمغتصبين[(٥)].

(١) لقد استخدمت كلمة **(الجوف)** في المصادر بشكل عام لتشير إلى الشمال، ولكن في السياق المذكور، فان مصطلح الجوف يقابل استرا مادورا الحديثة، وهي منطقة غرب اسـبانيا، وتشمل محافظات قاصرين caceres وبطليوس Badajns ومـاردة Merida، يـضاف إلى ذلك فان ياقوت الحموي يعد الجوف جزء من منطقة اكـشونبة Ocsonaba جنـوب البرتغال الحالية. ينظر: **معجم البلدان**، ٢/ ٨٨.

(٢) **المقتبس في تاريخ رجال الأندلس (قطعة خاصة بعهد الأمير عبدالله)**، تحقيق: ملـشورم انطونية، باريس، ١٩٣٧، ص١٣٩.

(٣) طه، **الفتح والاستقرار**، ص٢٨٠؛ عنان، **من الفتح إلى بداية عهد الناصر**، ص٧٠.

(٤) فكري، احمد، **"الاثار الإسلامية في الأندلس"**، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، **الامانة العامـة لاتحاد المؤرخين العرب**، العدد الثامن، لسنة ١٩٧٨، ص٢١؛ الدليمي، ناظم عواد، محيميد، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس (٩٢-٦٤٤هـ/ ٧١١ – ١٢٤٦م)**، رسـالة ماجـستير غيـر منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٨، ص٢٠٤.

(٥) العميد، طاهر مظفر، **"الاثار الإسلامية والتطور"، دراسة في تطبيقات العمارة وتخطيط المدن الإسلامية**، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد اربعون، لسنة ١٩٨٩، ص٢٩٠؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص٢٠٤.

فالمنشآت العمرانية في المدن هي السمة البارزة للدولة العربية الإسلامية في الأندلس، ذات الأسلوب الفني المتميز، والتي نالت إعجاب الكثير[١]، حيث كان دور العرب المسلمين واضحاً في نشأة العمارة الإسلامية في الأندلس، فقد حملوا معهم أفكارهم المعمارية الناضجة إلى المناطق التي حرروها بعد الفتح، كما أتاحوا الفرصة للفنانين المهرة والبنائيين والعمال غير العرب أن يبدعوا ويساهموا مع المعماريين العرب في إنضاج أساليب الفنون العمرانية المختلفة[٢].

ويبدو أن ظاهرة التطور في تخطيط المدن إنما هو تقليد ما جاء عن مدينة الرسول محمد (ﷺ)، حيث كانت نقطة ارتكاز المدينة تتكون من مثلث ديني – سياسي – اقتصادي، لا تفتقده أية مدينة، وهو المسجد الجامع ودار الإمارة والأسواق وبجوارها الفنادق والميدان الذي لابد منه للتجارة وتلاقي الناس وربط خيولهم ومراكبهم، فهذا المثلث هو أساس تميز المدينة الإسلامية، حيث ظل هذا الأسلوب متبعاً في تخطيط المدن وذلك لارتباطه بالدين والسياسة والاقتصاد، كما ترجع أهميته إلى سهولة اتصال السكان بمكانهم الديني ومرجعهم السياسي وموردهم المعاشي[٣]. وبمرور الزمن تطور التخطيط العمراني بحيث شمل كل ما تقتضيه الحاجة العمرانية للمدينة الإسلامية، وتنقسم المنشآت العمرانية في المدن إلى ثلاثة أنواع:

---

(١) سالم، **تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس**، ص٣٧٥ وما بعدها؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨١.

(٢) العميد، **الاثار الإسلامية والتطور**، ص٢٨٣؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨١.

(٣) مصطفى، شاكر، **المدن في الإسلام حتى العصر العثماني**، الكويت، ذات السلاسل للطباعة والنشر، ١٩٨٨، ٢/ ٣٤٧؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨١.

أولاً: المنشآت الدينية:

تشكل العمارة الدينية مظهراً رئيساً من المظاهر العمرانية في المدينة الإسلامية، حيث كانت تمثل إشعاعاً حضارياً مهماً، تتمثل في:

١- المسجد الجامع:

إقترن عصر الفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها بإنشاء المسجد الجامع امتثالاً لقوله تعالى ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾(١). وكذلك قوله تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ** ﴾(٢). كما جاء في الأثر عن الخليفة عثمان بن عفان (ﷺ) انه قال: سمعت رسول الله محمد (ﷺ) يقول: ((من بنى مسجداً لله بنى الله له في الجنة مثله))(٣).

وبهذا كان المسجد الجامع على رأس المؤسسات الدينية التعليمية التي اعتمدها المسلمون في صقل وبناء الشخصية الإسلامية، ولا خلاف في أن المسجد الجامع شكل منذ البداية مدرسة الحياة لدى المسلمين، ففيه تقام الصلوات الخمس وتعرف أصول الشريعة، وفيه كانت تعالج أمور شتى من أمور المسلمين في دينهم ودنياهم، وفيه يتقاضى الناس ويلتقي قادة الأمة للتشاور في

(١) سورة التوبة، الآية ١٨.

(٢) سورة النور، الآية ٣٦.

(٣) النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤، ١/ ٣٧٨؛ وينظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **نيل الاوطار في شرح منتقى الاخبار**، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، د. ت، ٢/ ١٦٤.

جلائل الأمور، بل كانت الأمة تتجه إليه في كل شؤونها، وهو قلب المدينة المسلمة لا في موقعه وحسب بل في مهمته ايضا[١].

والغالب أن بناء المساجد الجامعة يكون في وسط المدينة على مسافة متقاربة مع أطرافها ليسمع الآذان الجميع[٢]، إذ يعد المسجد الجامع مركز الإشعاع الديني ورمزه في المدينة[٣]. ولكن للأسف لم نعثر على معلومات تفصيلية تفيدنا في تاريخ إنشاء المسجد الجامع في مدينة ماردة، ومساحته، والقائد أو الوالي الذي أنشئه. ولكن على ما يبدو انه قد بني منذ أن فتحت المدينة على يد القائد موسى بن نصير سنة ٩٤ هـ/ ٧١٣م، إذ كان بناء المسجد الجامع أول شيء ينجزه المسلمون حين يقيمون في مكان ما.

وكان لتخطيط المسجد الجامع في قرطبة اثر مباشر على مسجد مدينة ماردة وغالبية مدن الأندلس، من حيث اتجاه بلاطاته عمودياً على جدران القبلة، ونشهد هذا التاثير واضحاً في زيادة اتساع البلاط الاوسط وزيادة ارتفاعه على البلاطات الأخرى[٤]. في حين تميزت منابر جوامع كبار مدن الأندلس ومنها

(١) سالم، **تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس**، ص٣٧٥؛ الحجي، **التاريخ الاندلسي**، ص١٤٨؛ بلباس، ليوبولدو تورتيس، "**الابنية الاسبانية الإسلامية**"، مدريد، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد الأول، لسنة ١٩٥٣، ص٩٩-١٠٠.

(٢) مصطفى، **المدن في الإسلام**، ١/ ٣٩٤؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٢.

(٣) مؤنس، حسين، **المساجد**، الكويت، المجلس الاعلى للثقافة والفنون والاداب، ١٩٨١، ص٣٤-٣٧؛ مصطفى، **المدن في الإسلام**، ٢/ ١٨٥ – ١٨٦؛ خضر، حازم عبدالله، "**التعليم في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع**"، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، كلية الآداب، العدد العاشر، لسنة ١٩٧٩، ص٢١٣؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٣.

(٤) سالم، السيد عبد العزيز، "**العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها**"، مجلة عالم الفكر، د. م، د. ط، الجلد الثامن، العدد الأول، لسنة ١٩٧٧، ص٩٣؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٣.

ماردة، بزخارف معمارية هندسية، نباتية، مرصع معظمها بالعاج والاخشاب الفضية[١]. كما اتبع الأندلسيون ظاهرة زراعة الأشجار في المساجد مثل جامع اشبيلية وقرطبة ومالقة والمرية ومن الطبيعي أن لا يخلوا جامع مدينة ماردة من ذلك[٢]. وكان الوالي أو العامل الذي يمثل العاصمة قرطبة في ماردة، غالباً ما يؤدي صلاة الجمعة في المسجد الجامع[٣]. وكان المسجد الجامع كحال المساجد الأخرى حافلاً بالنشاط العلمي وكثيراً ما كانت تجري به حلقات الدرس والمناقشة بين العلماء[٤]، في مختلف فروع العلم، وربما تحتل الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة (سانتا ماريا) حالياً، موقع المسجد الجامع في مدينة ماردة[٥].

٢- الكنائس:

قامت خطة المسلمين في معاملة الامم المغلوبة، على عدم التدخل في شؤونهم الدينية وعلى السماح لهم بممارسة عباداتهم وطقوسهم على وفق ما يوجب عليهم شرعهم وتقاليدهم، سواء كانت تلك الامم من أهل الكتاب أم من المجوس وغيرهم، فكثيراً ما تكون عقود الذمة (الامان) تتضمن الشروط التي

(١) حميد وآخرون، عبد العزيز، **الفنون الزخرفية العربية الإسلامية**، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٢، ص٥٢؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٣.

(٢) مورنيو، مانويل جوميث، **الفن الإسلامي في اسبانيا**، ترجمة: لطفي عبد البديع والسيد محمود عبد العزيز سالم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص٣٠؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٣.

(٣) سالم، **تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس**، ص٣٧٥ ومابعدها.

(٤) السبتي، القاسم بن يوسف التجيبي، **مستفاد الرحلة والاغتراب**، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥، ص٣٢٣ – ٣٢٦.

(٥) عنان، **الاثار الأندلسية**، ٣٨٣.

يتفق عليها المسلمون مع أهل الذمة فيما يتعلق بأمور العبادة، فكان الحكام المسلمون يحثون على الالتزام بذلك[١].

وعلى أساس هذا التسامح الديني سمحت الحكومة الإسلامية لغير المسلمين الاحتفاظ بكنائسهم واديرتهم، ومنحتهم الحق في بناء كنائس جديدة[٢]. وقد احتوت مدينة ماردة على الكثير من الكنائس الجليلة الفائقة المنظر، وكانت معظمها قائمة منذ عصر الرومان واستمر بقاءها إلى ما بعد فتح المدينة على يد العرب المسلمين، فقد ذكر المقري[٣]، أنها: ((ذات عزّ ومنعة، وفيها اثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر، فائقة الوصف. . .)).

ومن الكنائس التي كانت موجودة زمن المسلمين، كنيسة **(سانتا ماريا)**، وهي صغيرة الحجم ذات عقود قوطية، وهي من الكنائس القديمة جداً، بيد أن اقدم كنائس ماردة هي كنيسة **(سانتا اولاليا)**، وهي ترجع إلى عصر قديم جداً، والمعروف أنها كانت قائمة أيام المسلمين، وصرحها الحالي هو صرحها المجدد بعد سقوط المدينة في ايدي النصارى، وهو ذو عقود قوطية خفيضة، والقدسية اولاليا هي حامية المدينة[٤]، فضلاً عن كنيسة **(سان ماتيو)** في مدينة قشرش **(caceres)** الواقعة غربي ترجالة، وهي من توابع مدينة ماردة[٥].

---

(١) حومد، اسعد، **محنة العرب في الأندلس**، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص١١٦؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٤.

(٢) سالم، السيد عبد العزيز، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٥، ص١٧٦؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٤.

(٣) **نفح الطيب**، ١/ ٢٧٠.

(٤) عنان، **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٣.

(٥) المرجع نفسه، ص٣٨٦.

\ثانياً: المنشآت المدنية:

كثيرة هي المنشآت المدنية في مدينة ماردة، والتي تشمل كافة مرافق الحياة المدنية، ويمكن إن نتناولها بالشكل الاتي:

١- القصور:

لم نهتدي إلى معلومات وافية ومفصلة عن القصور في مدينة ماردة على الرغم من قدم تأسيس المدينة وأهميتها، وكل ما جاء عن القصور في مدينة ماردة وتوابعها ما أشار إليه كل من الادريسي والحميري[١] بقولهما: ((ولها في قصبتها قصور خربة. . .)). ويبدو أن القصور في مدينة ماردة كانت تتوسط الاسوار الرومانية القديمة، وهي اسوار عظيمة تضم في داخلها اطلال ما يسمى بالقصبة أو القصر، وقد أشار الحميري[٢] إلى هذا القصر بقوله: ((وقصر ماردة بناه عبد الملك بن كليب بن ثعلبة، وهو بديع طول كل شقة من سوره ثلثمائة ذراع، وعرض البناء اثنا عشر ذراعاً. . .)) وفي الجنوب من السور الذي كان يحيط بالمدينة قصر آخر صغير أشار إليه الادريسي[٣]، بقوله: (. . . وفي الجنوب من سور المدينة قصر آخر صغير وفي برج منه كان مكان مرآة كانت الملكة ماردة تنظر إلى وجهها فيه ومحيط دوره عشرون شبراً. . .).

وكان بناء القصور أما أن يكون على النظام الكلاسيكي الغربي أي ذات بهو تحيط به الحجرات أو يتألف من اروقة متوازية أشبه ما تكون ببلاط المساجد[٤]، ومهما يكن من أمر فان العرب المسلمين لم يشرعوا في بناء

---

(١) **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٤٥؛ **الروض المعطار**، ص٥١٨.

(٢) **الروض المعطار**، ص٥١٩.

(٣) **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٤٦.

(٤) مورنيو، **الفن الإسلامي في اسبانيا**، ص٧٨؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٥.

قصورهم إلا في عهد الامويين، وهو العصر الذي انبثقت فيه الفنون الإسلامية الأندلسية[١]، وذلك لما أصاب الأندلس من تأثيرات حضارية مشرقية إسلامية، بحيث لم تخلُ مساجدها وقصورها وحماماتها من الفنون الزخرفية والنقوش الإبداعية، سواء كانت على شكل توريقات نباتية، أو رسوم حيوانية تتخللها نقوش الفسيفساء ذات الألوان العجيبة، وهذا ما اشتهر به المعماريون المسلمون الذين أضافوا الشيء الكثير على فن العمارة الاندلسية، وبهذا فقد تأثرت أفكار المجتمع بالفنون التي غزته[٢]، فما كاد عبد الرحمن بن معاوية يعلن إمارته في الأندلس حتى رأى أن يحيط نفسه بشيء من فخامة الملوك وابهة الخلافة، والتي نالت الإعجاب بتطورها العمراني خلال العصور اللاحقة[٣].

٢- الارباض (الأحياء) والشوارع:

يطلق على المنطقة السكنية التي تحيط بمركز المدينة بالارباض ومفردها ربض، وتارة بالضاحية، وقد وضح صاحب كتاب المدن في الإسلام[٤] أن

---

(١) دودز، جيريلين، **فنون الأندلس**، بحث منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ٢/ ٨٦٣؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٦.

(٢) سالم، **العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها**، المجلد الثامن، العدد الأول، ص٩١؛ Richard B. Parker, Apracthcal guide to Islamic, monuments in Morocco, (Virginia , The Barakapress, 1981), p. 13.
(نقلا عن: الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ١٨٦).

(٣) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص١٨٧ – ١٨٨؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٦.

(٤) مصطفى، ١/ ١٨-١٩.

الربض ليس معناه الضاحية بل معناه الحي، وكل ربض فيه من المساجد والأسواق ما يقوم بأهله ولا يحتاجون لغيره[١].

وقد وصفت إحياء مدينة ماردة وعامة مدن الأندلس بمبانيها الجميلة وشوارعها الضيقة المتعرجة الملتوية، وازقتها المغلقة، وميادينها القليلة، ولكنها جميلة ومؤثرة، ولها طابع خاص، ومنازلها كثيرة الألوان ذات طابقين أو ثلاثة. ومن هنا نستنتج خلوها من الابنية الكبيرة الفخمة وسط هذه المنازل المتواضعة المتلاصقة تلاصقاً شديداً، والمتداخلة بشكل استدعى كثرة وجود الممرات الضيقة والعقود المحدودة فوق الشوارع[٢]. ويذكر عنان[٣] أن الكثير من مباني مدينة ماردة في الوقت الحاضر، يحمل طابعاً اندلسياً من العقود والشبابيك المعقودة والافنية الأندلسية، ويُرى النخيل في شوارعها وميادينها واحياناً في منازلها.

إن صناعة البناء اول صنائع العمران المدني واقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للابدان في المدن[٤]. وفي ذلك يقول ابن عبدون[٥]: ((فهي الاكنان لمأوى الانفس والمهج والابدان فيجب تحصينها وحفظها لأنها مواضع رفع الاموال وحفظ المهج)). وقال ايضاً في

(١) حسين، كريم عجيل، **الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية**، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ساعدت على طبعه جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص٧٤.

(٢) خلاف، محمد عبد الوهاب، **قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي – الخامس الهجري**، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، ص٢٥.

(٣) **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٠.

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، د. م، دار البيان، د. ت، ص ٤٠٦؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٧.

(٥) محمد بن احمد، **رسالة في القضاء والحسبة**، **ضمن كتاب ثلاث رسائل اندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥، ص٣٤.

طريقة البناء: ((ينظر اولاً في تعريض الحيطان وتقريب الخشب الوافر الغليظ القوي للبنية، وهي التي تحمل الاثقال وتمسك البنيان)). وقد أشار الشقندي[١] واصفاً المباني الأندلسية قائلاً: ((أما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها واهتمام أصحابها، وكون اكبر ديارها لا تخلوا من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة. . .)).

أما طريقة البناء في مدينة ماردة فهي لا تختلف عن بقية مدن الأندلس الأخرى، فهو أسلوب جرى العرف عليه، حيث كانت البيوت في مدينة ماردة تتألف من جزءين أساسين هما: الواجهة الخارجية وداخل البيت. وكانت الواجهة الخارجية متواضعة من غير زخرفة بحيث يتناقض مع مظهره الداخلي الزاخر بالزخارف. كما زودت بنوافذ بارزة تشبه الشرفات تعلو فتحة الباب وتغطي هذه النوافذ شبكات من الخشب لتجنب ضوء الشمس الساطعة من الدخول ومن ثم تعد أشبه بالمظلة تمنع دخول المطر من النوافذ[٢]. أما بالنسبة لطراز البيت فكان يتألف من عدة حجرات وفناء مكشوف به البئر يدخل منه الهواء والضوء[٣]. فكان بناء الدور يختلف من فئة إلى أخرى حسب المستوى المعاشي.

---

(١) إسماعيل بن محمد وابن حزم وابن سعيد، **رسالة في فضل الأندلس، ضمن كتاب فضائل الأندلس واهلها**، نشر وتقديم: صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديدة، ١٩٦٨، ص٥٢.

(٢) سالم، السيد عبد العزيز، **العمارة المدنية في الأندلس**، القاهرة، دائر معارف الشعب، مطابع الشعب، العدد الرابع والستون، لسنة ١٩٥٩، ص١٢١؛ **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص١٨٤.

(٣) خلاف، **قرطبة الإسلامية**، ص٢٧؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٨.

٣- القناطر والارحاء (المطاحن):

لقد تميزت بلاد الأندلس عن غيرها من البلدان الإسلامية الأخرى بكثرة أنهارها التي تخترق مدنها وقراها، ونظراً لوقوع مدينة ماردة على وادي نهر يانة، فمن الطبيعي إن يكون لها قناطر وارحاء، وهذه القناطر كانت تقام على الأنهار وتكمن أهميتها في ربط المناطق التي تفصلها الأنهار بعضها ببعض، وتقام هذه القناطر أما على شكل أقواس أو على القوارب[١].

وكل ما جاء عن قناطر مدينة ماردة، ما ذكره الحميري بقوله[٢]: **((**وفي وسط قنطرتها برج محني يسلك تحته من سلك في القنطرة. . .**))** وقال ايضاً في وصفها: **((**وقنطرة ماردة عجيبة البنيان طولها ميل، بابدع ما يكون من البنيان**))**. وربما تكون هذه القنطرة هي نفسها القنطرة الرومانية العظيمة التي أشار إليها عنان[٣]، حيث ذكر أن من المعالم الاثرية الجليلة في المدينة، القنطرة الرومانية العظيمة التي تقوم فوقها أعمدة الجسر المائي التي كانت تحمل قنوات الماء إلى القصر، وتقع هذه القنطرة بجوار الأسوار الرومانية، وهي أسوار عظيمة تضم في داخلها أطلال ما يسمى بالقصبة.

أما الأرحاء: جمع رحى، وهي تستخدم لطحن الحبوب بواسطة المياه، وتقام في مدينة ماردة على نهرها المعروف نهر وادي يانة الآنف الذكر، ولم تسعفنا المصادر ولاسيما الجغرافية منها بتفاصيل عن الأرحاء في مدينة ماردة وتوابعها، لكنها على الأغلب كانت موجودة بسبب قدم المدينة وكبر حجمها ومرور وادي نهر يانة بأراضيها.

---

(١) القاسمي، جاسم محمد، **تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٩، ص٧٧؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٨٩.

(٢) **الروض المعطار**، ص٥١٨.

(٣) **الآثار الأندلسية**، ص٣٨٠-٣٨٢.

٤- الأسواق والفنادق (الخانات):

تعد الأسواق جزءً مهماً من المنشآت المدنية في أي مدينة من مدن الأندلس، حيث أنها ضرورية لسد حاجة الناس من متطلبات الحياة اليومية، إلا انه لم يرد في المصادر المتوفرة أسماء الأسواق أو الحوانيت التي كانت منتشرة في مدينة ماردة وكل ما جاء في المصادر بهذا الخصوص ما ذكره الإدريسي(١) عن أسواق ترجيلة من توابع مدينة ماردة، بقوله: ((مدينة كبيرة آهلة بالسكان وبها أسواق عامرة. . .)).

كانت الأسواق تُشيّد على مساحة مستطيلة يتوسطها طريق ممتد تقع الحوانيت على جانبيه(٢) بالقرب من المسجد الجامع(٣)، وكان يطلق على هذه الأسواق اسم قيسارية، وكلمة (قيسارية) تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية (Kaisareie) وتعني السوق القيصري التابع للدولة، وكانت القيسارية تتألف احيانا من شبكة من الطرقات الضيقة المسقوفة (زنقات)، أو من ممرات تدور حول بهو فسيح وتنفتح الحوانيت على هذه الممرات(٤).

ويرى ابن عبد الرووف(٥) انه لمنع اشغال الطرق الضيقة يمنع الناس من دخول القيسارية والأسواق على ظهور دوابهم، وكانت هذه الاسواق خاضعة لمراقبة شديدة من لدن الوالي أو الأمير في المدينة، فقد جعل عليها شخصاً أميناً

(١) **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٥٠.

(٢) علام، نعمت إسماعيل، **فنوق الشرق الاوسط في العصور الإسلامية**، مصر، دار المعارف، ١٩٧٤، ص١٧٩ – ١٨٠.

(٣) سالم، **العمارة المدنية في الأندلس**، ص١٤٥.

(٤) المرجع نفسه، ص١٤٥.

(٥) احمد بن عبدالله، **رسالة في آداب الحسبة، ضمن كتاب ثلاث رسائل اندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥، ص١١١.

ومعه ما يتبعه فيسند إليه وظيفة صاحب السوق[١] أو صاحب الحسبة أو المحتسب لينظر فيما يصلح من المعاش وما ينشأ من السلع ومراقبة الموازين والمكاييل، وان تكون لها مقادير معروفة ومتساوية، والقضاء على الغش وتعقب المزيفين ومعاقبتهم بكل قسوة وطردهم من الأسواق إذا اقتضى الأمر ذلك[٢] فنظام الحسبة هو في حد ذاته وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣].

أما الفنادق أو الخانات فكانت منتشرة في الأندلس ومنها مدينة ماردة وتوابعها، نتيجة لتأثر المسلمين بنظام الفنادق الذي كان شائعاً عند اليونان باسم (Agora) والرومان باسم (Hovra)، وقد ظل الفندق الإسلامي معروفاً في عصر اسبانيا النصرانية تحت اسم (Alfuondinga) ومنها اشتقت كلمة (Fonda) وتعني بالاسبانية فندق يأكل النزلاء فيه وينامون[٤]. فكان نظام بناء الفنادق في ماردة وعامة مدن الأندلس متواضعاً في المساحة، حيث لا تتجاوز

(١) عن مسؤوليات صاحب السوق وصلاحياته. ينظر: ابن الاخوة، محمد بن محمد بن احمد القرشي، **معالم القربة في احكام الحسبة**، تحقيق: محمد محمود شعبان وصديق عيسى المطيعي، مصر، د. مط، ١٩٧٦، ص١٢.

(٢) ابن عمر، يحيى، **احكام السوق**، تحقيق: محمود علي مكي، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥، ص١٣٠-١٣٤؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٠.

(٣) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٢٢٥؛ ابن الازرق، أبو عبدالله محمد الاندلسي، بدائع السلك في طبائع الملك، جزءان، تحقيق: محمد بن عبدالكريم، ليبيا، الدار العربية للكتاب، د. ت، ١/ ٢٦٢؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٠.

(٤) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص٢١٥ – ٢١٦؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩١.

مساحة البناء أكثر من (٣٠× ٣٠ م٢) تقريباً[١]، ويتوسط مركز المدينة، ويتكون بناؤه من بهو مستطيل أو مربع تدور به ممرات تطل على البهو، وتتوزع غرف الفندق وراء هذه الممرات ويخصص الطابق الادنى من الفندق للمخازن، أما الطابق العلوي فيشمل حجرات النزلاء ومخازن البضائع المعدة للبيع وتقوم عقود الممرات حول بهو الفندق على دعائم خشبية تربطها فيما بينها اوتار خشبية كذلك، وكانت هذه الدعائم في الفنادق الغنية تبنى من الآجر، ويتوسط البهو فوارة للسقاية، ويمكن الصعود إلى الطابق العلوي من الفندق على سلماً، وجدران الفندق الخارجية خالية من أي منفذ وذلك لتجنب السرقات واللصوصية، أما المدخل فكان يتخذ على شكل عقد متجاوز على هيئة حدوة فرس. وكان يُعين خادم خاص على باب الفندق ويشترط أن يكون متقدماً في السن، وقوراً، اميناً، ولم يكن من المرغوب فيه أن يشغل الشباب أو النساء هذه الوظيفة[٢].

إن وجود الفنادق مرتبط بسفر الغرباء وزيارتهم للمدن الأندلسية، فكان الفندق عبارة عن بناء يقضي التجار ليلهم فيه، وتحفظ فيه البضائع وتخزن أو تباع احياناً بالجملة، فضلاً عن دوابهم التي ينقلون عليها البضائع. ومهما يكن من أمر فقد كان للفندق في الأندلس مكانة هامة في العمران الاقتصادي لذلك

(١) الادريسي، **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٦٩؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص٤٨٨؛ ارسلان، **الحلل السندسية**، ١/ ١٢٨؛ كونستبل، اوليفيا ريمي، **التجارة والتجار في الأندلس**، تعريب: فيصل عبدالله، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢، ص١٨٩؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩١.

(٢) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص٢١٦؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩١.

كثرت الفنادق في مراكز المدينة وحول المسجد الجامع[١]، إلا أن مصادرنا العربية لم تمدنا بمعلومات مفصلة ودقيقة عن فنادق ماردة وتوابعها.

٥- الحمامات:

تعد الحمامات من المنشآت المدنية التي أنشئت لخدمة العامة من سكان مدينة ماردة، وذلك لحاجات وظيفية مرتبطة بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر، ويرجع الفضل في إنشائها واستخدامها إلى الوجود الإسلامي في اسبانيا. ولعدم قدرة العامة جميعاً على تضمين منازلهم حمامات خاصة، انشئت الحمامات العامة، ونظمت سلطات المدينة إنشائها وما يتصل بذلك من تزويدها بمصادر الماء وقنوات الصرف، وما يصدر عن بنائها من دخان تحكم احياناً في تحديد مواضعها ووحداتها[٢].

ويأتي دور الحمام في الأهمية المعمارية بعد المسجد الجامع مباشرة، فقد كان للحمامات أهمية عظمى في الحياة الاجتماعية في المدينة، إذ كانت عادة الاستحمام من العادات المتأصلة بعمق في الإسلام. والواقع أن الحمام هو المكان الذي يشعر فيه المرء ببهجة الحياة لأنه يولد احساساً بالراحة ويحدث شعوراً بانتعاش بدني وروحي، فضلا عن انه من الظواهر الاجتماعية التقليدية لدى المسلمين، حيث انه مكان يتجمع فيه الناس للمرح والإنس والغناء[٣].

(١) القاسمي، **تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، ص٧٣؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩١.

(٢) عثمان، محمد عبد الستار، **المدينة الإسلامية**، الكويت، مطبعة الرسالة، ١٩٨٨، ص٢٤٦.

(٣) سالم، السيد عبد العزيز، "**التخطيط ومظاهر العمران في العصور الوسطى**"، مجلة المجلة، القاهرة، العدد التاسع، لسنة ١٩٥٧، ص٦٠؛ **العمارة المدنية في الأندلس**، ص١٣٩؛ علام، **فنون الشرق الاوسط**، ص١٧٩.

وكان الحمام يتألف عادة من مدخل يؤدي إلى ثـلاث قاعـات أو أربـع رئيسية مقباة تضاف إليها ملحقات الحمام من الموقد والمرحاض، وكانـت هـذه القاعات تتصل فيما بينها عن طريق فتحات أو أبواب وكانت تتخذ جميعا شـكلا مستطيلا أو مربعاً[١] ويؤدي مدخل الحمام إلى اسطوان وردهة صغيرة في شكل مرفق، يليله حجرة ضيقة مستطيلة تعلوها قبوة نصف اسطوانية بنهايتها قبـوان يعرفان بالخلوتين ويفصل هاتين الخلوتين عن بقية القاعة عقدان يـستندان فيمـا بينهما على عمود مركزي وتعرف هذه القاعـة بأسـم البيـت البـارد، وكـان المستحمون يخلعون فيها ثيابهم عند دخول الحمام ويلبسونها عند خروجهم منـه، وفي أركان الخلوتين مقاعد يستريح عليها المستحمون[٢]، وفي بعض حمامـات المترفين ولاسيما في القصور كانت تسبق البيت البارد غرفة تعرف باسـم بيـت المستراح يستريح فيها المستحمون قبل خروجهم من الحمام، ويلي البيت البـارد قاعة تعرف بالبيت الوسطاني وهو أكثر اتساعا من القاعة الـسابقة وتعـد أهـم أجزاء الحمام[٣].

ويذكر عنان[٤] أن الحمام في مدينة ماردة وغالبية مدن الأندلس يقع داخل البناء المسمى ملجأ العجزة، وهو عبارة عن قبو شاسع ذي عقود متعددة قائمـة على صفين وفي بعض قباب هذه العقود نوافذ نجمية مما يدلي بأنها كانت بالفعل حمامات. وقد اهتم أهل ماردة وعامة أهل الأندلس فـي الحفـاظ علـى نظافـة الحمامات، حيث كانت صهاريج المياه تغطى بغطاء محكم يـؤمّن الميـاه مـن النجاسة ويبقيها نظيفة وطاهرة. وتختلف الحمامات من طبقة إلى أخرى، حيـث

(١) سالم، **العمارة المدنية في الأندلس**، ص١٤٠؛ خلاف، **قرطبة الإسلامية**، ص٣٠.

(٢) بلباس، **الابنية الاسبانية الإسـلامية**، ص١١٠-١١١؛ خـلاف، **قرطبـة الإسـلامية**، ص٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٠.

(٤) **الاثار الأندلسية**، ص٢٢٦.

كانت حمامات المترفين تجمل بتغطية اسافل جدرانها بالخزف وزخرفة حيطانها بالرسوم، وادخال صنابير معدنية ونافورات بتماثيل حيوانية، واحياناً كانت تستخدم بعض التماثيل الرومانية في تجميل هذه الحمامات[١].

٦- السجون (المطبقات):

ورد ذكر لفظة السجن بالمصادر التاريخية في الأندلس، واشهر هذه السجون سجن مدينة قرطبة المسمى بسجن المطبق، ولن تشذ مدينة ماردة عن غيرها من المدن الأندلسية الأخرى في هذا، كون بناء السجون كان واحداً من المستلزمات الضرورية لحفظ الامن والنظام في الدولة.

وجاء اول ذكر للسجن في مدينة ماردة على عهد الموحدين، وتحديداً على عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ – ٥٨٠هـ/ ١١٦٣ – ١١٨٤م)، وذلك عندما غضب على وزيره ادريس بن إبراهيم بن جامع واولاده لسبب لم يذكره ابن الابار، فنفاهم جميعاً إلى ماردة في غرب الأندلس، حيث ظلوا قامعين في السجن هناك سنوات عديدة، حتى عفا عنهم الخليفة أبو يعقوب يوسف وهو في طريقه إلى غزوة شنترين سنة (٥٨٠ هـ/ ١١٨٤م)[٢].

(١) ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة**، ص٤٨؛ خلاف، **قرطبة الإسلامية**، ص٣١.

(٢) **الحلة السيراء**، ٢/ ٢٣٩ تعليق المحقق هامش (٤).

٧- المقابر:

لا تستثنى مدينة ماردة عن باقي مدن الأندلس في مسألة وجود المقابر فيها على الرغم من أن المصادر لم توضح أسماءها ولم تحدد أماكنها، ومن الملاحظ انه بعد الفتح العربي الإسلامي للأندلس خصصت الحكومة المركزية أماكن لتكون مقابر للمسلمين، كما كان بعض المسلمين يحبس قطعة ارض أو فدان أو أكثر ليكون مقبرة. ويمنع استغلال هذه الاحباس في غير ما حبست له، وكانت لهذه الاحباس احترامها وعدم المساس بها حتى لو هجرت المقبرة ولم يعد يدفن فيها أحد(١).

ومن الطبيعي أن مقابر مدينة ماردة قامت خارجها أو خارج أسوارها وهذا نظام جميع مدن الأندلس، ولكن كثيراً ما تتسع المدينة وتمد خارج أسوارها، وبذلك تصبح بعض من هذه المقابر داخل المدينة(٢).

كانت القبور في بداية الفتح العربي الإسلامي بسيطة البنيان ترتفع قليلاً عن الأرض، وكان القضاة والمحتسبون يأمرون حافري القبور بتعميقها قدرا معقولاً بحيث لا تظهر روائحها ولا تتمكن السباع والكلاب من نبشها، وان يستر ما خرج من عظام الموتى في التراب ولا يترك ظاهراً(٣).

---

(١) ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة**، ص٢٦– ٢٧؛ بنشريفة، عصمت دندش، "**من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس (طقوس الجنائز)**"، مجلة دراسات اندلسية، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، العدد الثالث عشر، لسنة ١٩٩٥، ص٢٠؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٤.

(٢) سالم، السيد عبد العزيز، **تاريخ مدينة المرية الإسلامية (قاعدة اسطول الأندلس)**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٩، ص١٢٩؛ **مصطفى**، **المدن في الإسلام**، ٢/ ٣٠٥؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٤.

(٣) ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة**، ص٢٧؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٤.

وبمرور الزمن واتساع العمران والرخاء بالأندلس، شمل التغيير كل مناحي الحياة حتى في الموت ومراسيم الجنازة والقبور، فابتدع الاندلسيون اشكالاً في بناء القبور والقباب والسقائف وزرع الاشجار عليها، وتفننوا في زخرفتها ونقشها(١).

كانت شواهد قبور مدينة ماردة، من الرخام الفاخر المصقول الذي اشتهرت به المدينة وغيرها من مدن الأندلس، حيث نقش عليها اسم المتوفى وتاريخ وفاته(٢). كما كانت الابيات الشعرية تنقش على شواهد القبور لتصف الفقيد وخدماته(٣)، واشار ابن الفرضي(٤)، إلى أن احد علماء مدينة ماردة المدعو محمد بن مروان بن رزين المكنى أبو عبدالله والمعروف بابن الغشا قد توفي سنة ٣٣٩هـ/ ٩٦١ م، ودفن بمقبرة الغلقة. ولكن لم نعثر على ما يشير إلى مكان هذه المقبرة ومن المحتمل أن تكون من مقابر مدينة ماردة باعتبار أن الفقيد من أهل المدينة ذاتها.

ثالثاً: المنشآت العسكرية:

منذ بداية عصر الولاة **(٩٥ – ١٣٨هـ/ ٧١٤ – ٧٥٧م)** قام الوالي ايوب بن حبيب اللخمي ببناء قلعة ايوب في شمال طليطلة، وهي دلالة على

---

(١) بنشريفة، **من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس (طقوس الجنائز)**، العدد الثالث عشر، ص٢٢؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٥.

(٢) إسماعيل، عثمان عثمان، **دراسات جديدة في الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الاقصى**، الرباط، دار الثقافة، ١٩٧٧، ص٢٢٧؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٥.

(٣) ابن الابار، **الحلة السيراء**، ١/ ٢٧٣؛ مورنيو، **الفن الإسلامي في اسبانيا**، ص٢٦٠.

(٤) أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الازدي، **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، عني بنشره: السيد عزت العطار الحسيني، ط٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٨، ٢/ ٦٠.

اهتمامه بالمنطقة وتوطيد حكم المسلمين فيها وتمكيناً لمصالحهم الاقتصادية ورغبة في دعم نظامهم الدفاعي امام المحاولات المستمرة من جانب الأسبان، لطرد المسلمين من الاندلس[١]. ومن مظاهر المنشأت العسكرية في مدينة ماردة هي:

١- القلاع:

اهتم أهل الأندلس ومنهم الماردبون ببناء القلاع لتكون مركزاً دفاعياً متقدماً يتحصن بها الجنود والمرابطون، وهذا ما ساعد على حفظ الامن في المدينة والحفاظ على سلامتها، فقد عملت السلطة على تقويمها فضلا عن مشاركة أهل المدينة، مادامت مصلحتهم تقتضي ذلك[٢].

ومن القلاع المشهورة في مدينة ماردة، القلعة الرومانية القوطية القديمة، التي انشأ المسلون على انقاضها القصبة أو القصر[٣]. ومن القلاع الأخرى في مدينة ماردة، قلعة الحنش (Alange) التي أشار إليها ابن عذاري[٤] عند حديثة عن ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي* في ماردة سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨ م. ولم نعثر في المصادر المتوافرة على أسماء قلاع أخرى كانت موجودة في ماردة قبل وبعد الفتح الإسلامي.

---

(١) سالم، السيد عبد العزيز، **العمارة الحربية بالأندلس**، دائرة معارف الشعب، القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٥٩، ص١٥٠؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٥.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق: الاب شالميتا واخرون، ٥/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٣) عنان، **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٣.

(٤) **البيان المغرب**، ٢/ ١٠٢؛ وينظر: حتاملة، **الأندلس، التاريخ والحضارة والمحنة**، ص٢٧٦.

(*) هو عبد الرحمن بن مروان بن يونس، يعرف بابن الجليقي أو الجليقي. اصله من جهة الغرب، وهو من المولدين. يصفه ابن القوطية بان له (من العقل والكيد والبصر بالشر بحيث لا متقدم له فيه). ينظر: **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص١٠٧.

٢-القصبات:

القصبة: هي القلعة الحصينة الواسعة التي تتوسط المدينة، وكانت تبنى عادة فوق أعلى ربوة تشرف على المدينة للسيطرة عليها والدفاع عنها، كما كانت مقراً للامير أو الحاكم أو السلطان وخزائنه، ويلحق بها عادة المسجد الجامع والمتاجر والاسواق[١]. وبعد أن دخل المسلمون مدينة ماردة وفتحوها، استولوا على قصبتها وطوروها[٢] وقد كانت من قبل قلعة رومانية إلا أن المسلمون انشئوا على أثارها القصبة[٣].

ويذكر مالدونادو، أن المدخل الرئيسي لقصبة ماردة يقع بين برجين توأمين وقريبين من بعضهما، وهناك دهليز له دخلتان خاصتان بالعقد الخارجي الحدودي الشديد الانفراج، وتبلغ درجة الانحناء ١/٣، اما فتحة العقد فتبلغ ٢. ٧٠ وارتفاعه حتى البطن والمنكب يبلغ ٣. ٥٠م و ٤. ٢٠، اما الدهليز الذي يقع خلف العقد الحدودي فهو ذو سقف على شكل قبو نصف اسطواني ويبلغ أي الدهليز ارتفاعه ٥. ٣٦ م وفتحته ٤. ٠٣م ومن الداخل نجد إن اجمالي ارتفاع الواجهة ١٠. ٠٤ م[٤].

وفي مطلع القرن العشرين وتحديداً في سنة ١٩٠٢م، وجدت في قصبة ماردة لوحة رخامية كبيرة يبلغ طولها نحو المترين وعرضها نحو ثمانين سنتمتراً منقوش عليها كتابات كوفية وهذا نصها: ((بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله وعصمته لأهل طاعته. أمر ببناء هذا الحصن وبإعادته معقلا لأهل الطاعة الأمير عبد الرحمن بن الحكم اعزه الله على يدي عامله عبدالله بن كليب بن ثعلبة[٥] وجفار بن مكسر وشعيب بن موسى حاجب الساد في شهر ربيع الأول سنة عشرين ومائتين)).

---

(١) مصطفى، **المدن في الإسلام**، ١/ ٧٣.

(٢) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص١٨٨؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص١٩٧.

(٣) عنان، **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٢.

(٤) باسيليو بابون، **العمارة في الاندلس (عمارة المدن والحصون)**، ترجمة: علي ابراهيم منوفي، مراجعة وتقديم: محمد حمزة الحداد، ط١، القاهرة، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ٢/ ١١٤.

(٥) ورد اسمه عند الحميري،عبد الملك بن كليب بن ثعلبة. ينظر: **الروض المعطار**، ص٥١٩.

وهذه اللوحة الأثرية تشير إلى حدث تاريخي مهم، فقد كانت ماردة من المدن الثائرة على عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس، وكان يتزعم ثورتها سليمان بن مرتين زعيم البربر، فسار الأمير عبد الرحمن بنفسه إلى ماردة وحاصرها بشدة، وحدث أثناء الحصار أن قُتل الثائر في سقطة مميتة عن جواده، فانهارت الثورة، وانفضت جموع الثائرين، ودخل الأمير عبد الرحمن المدينة وأمر بتجديد قصبتها، لتكون ملاذاً لأولي الأمر من اوليائه، والمدافعين عن سلطانه، وكان ذلك في سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥م وهي السنة التي سُجلت في اللوحة المذكورة[١].

٣- الحصون:

الحصن: مأخوذ من الحصانة وهو المنعة[٢]، ويكون عادة مأهول بالسكان يكاد أن يضاهي مدينة صغيرة وقد تتبعه حصون أخرى، وقد يكون له حوز[٣]، ومن حصون مدينة ماردة حصن مدلين[٤]، الواقع بالقرب من نهر وادي يانه وهو حصن عامر آهل بالسكان يسكنه البرانس من البربر[٥]. وحصن لانجش[٦]، وحصن مدينة مكناسة المشحون بالخيل والرجال ويقع ايضا على نهر وادي يانه[٧]، وكذلك حصن الحنش الذي يقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة ماردة، ويصفه الادريسي[٨] بالمناعة والشموخ بقوله: ((وحصن الحنش منيع شامخ الذورة مطل الغلوة، شاهق البنية،

(١) عنان، **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٤.
(٢) الحموي، **معجم البلدان**، ١/ ٢٦٤.
(٣) مؤنس، **فجر الأندلس**، ص٤٦١.
(٤) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص١١٠.
(٥) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق: شالميتا واخرون، ج٥/١٢١.
(٦) الحموي، **معجم البلدان**، طبعة بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت، ٨/٥.
(٧) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق: شالميتا واخرون، ج٥/ ١١٩.
(٨) **نزهة المشتاق**، ٢/ ٥٨١.

حامي الافنية. . .)) وكان يسكنه بربر كتامة من البرانس، وقد تهدم هذا الحصن عندما اجتاحته قوات اردون بن الاذفونش(١).

وحصن أم جعفر(٢) الذي اعلن فيه زعال بن يعيش النفزاوي(٣) تمرده على الأمير عبدالله(٤)، فضلا عن الحصون الأخرى التي تعتبر من الحصون القديمة والمهمة في ماردة، مثل حصن أم غزالة وحصن الجناح(٥) وحصن سنت اقروج، وهو في غاية الارتفاع لا يعلوه طائر ولا نسر ولا غيره حسب ما أشار البكري(٦).

٤- الابراج:

ساد استخدام الابراج المربعة في التحصينات المعمارية حول المدن الاندلسية ومنها مدينة ماردة، حيث تتخلل اسوارها وقصبتها وحصونها ابراجاً متعددة متقاربة الابعاد(٧). ويذكر عنان(٨) أن ابراج مدينة ماردة كانت على درجة كبيرة من المنعة والحصانة، وهي تقوم على عقود ضخمة مبنية من الحجارة الصلدة. ومن أشهر أبراج

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق: الاب شالميتا واخرون، ص١٢٢.

(٢) البكري،**جغرافية الأندلس واوربا**،ص١٢٠؛ الحموي،**معجم البلدان**،٢٥٠/١؛ ابن عبد الحق البغدادي،٣/ ١٣١٧.

(٣) من قبيلة نفزة البربرية، جده فرانك بن لب بن خالد النفزاوي من سكنة قرطبة في المكان المنسوب اليه، ربض الرصافة، استدعاه قومه زمن الفتنة وجعلوه رئيساً عليه. وقد ثار زعال على الامير عبدالله في غرب الاندلس ثم ما لبث ان مات. ثم خلفه ابن عمه عبدالله بن عيسى بن قوطي الذي استمر في تمرده مدة خمس سنوات الى ان تمكن الامير عبدالرحمن بن محمد من القضاء عليه. ينظر: ابن حيان، **المقتبس في تاريخ رجال الاندلس** (قطعة خاصة بعهد الامير عبدالله)، تحقيق: الاب ملشور م. انطونية، باريس، ١٩٣٧، ص٢٢-٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٢.

(٥) البكري، **جغرافية الأندلس واوربا**، ص١٢٠؛ الحموي، **معجم البلدان**، ٢٥٤/١، ١٦٦/٢.

(٦) **جغرافية الأندلس واوربا**، ص١٢٠.

(٧) سالم، **العمارة الإسلامية في الأندلس**، المجلد الثامن، العدد الأول، ص١٢٨؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص٢٠٠.

(٨) **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٣.

ماردة، برج قشرش الواقع غربي ترجالة من توابع مدينة ماردة، حيث يبلغ ارتفاعه ١٣ قدم وهو مبني بالحجارة الرومانية التي جلبت من خارج مدينة ماردة[١].

٥- الأسوار والأبواب:

يعد السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن. وَعَدَّ الإسلام بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض وهي من مقاصد الإسلام[٢].

ومن المعروف أن مدينة ماردة وسائر المدن القديمة المشهورة لم يكن يحميها من أذى الغزو سوى الأسوار المنيعة التي تتخللها الأبواب عادة، وطبيعي أن المسلمين عندما دخلوا الأندلس وجدوا فيها بعض المدن المسورة كمدينة ماردة مثلاً، فقد توقف الجيش العربي الإسلامي بقيادة موسى بن نصير أمام أسوار ماردة الضخمة لأشهر عديدة قبل أن يدخلها صلحاً، وهذه الأسوار منها ما كان قائماً في عصر الرومان ومنها ما استحدث بعدهم، وقد عرف العرب الفاتحون الأسوار المحيطة بالمدن في المشرق، وبعد أن توسعت المدن اضطر المسلمون إلى إقامة أسوار جديدة تحيط بها[٣].

وقد اشتهرت مدينة ماردة بقوة تحصيناتها وأسوارها الضخمة ((وكان قد احدق بماردة سوراً عرضه اثنا عشر شبراً وارتفاعه ثمان عشرة ذراعاً)) [٤]. كما أشار الادريسي[٥] إلى دقة بناءها ومتانة أسوارها بقوله: ((وهي متقنة البناء، وثيقة التاليف، حسنة الصنعة، والمدينة عليها سور حجارة منجورة من أحسن صنعة واوثق بناء. .

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٨٦.
(٢) عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص١٣٥.
(٣) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص٢٢٧ – ٢٢٨؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص٢٠٢.
(٤) البكري، **جغرافية الأندلس واوربا**، ص١١٩؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص٥١٨.
(٥) **نزهة المشتاق**، ٥٤٥/٢.

.)) فهي بذلك كانت تتمتع بسور متين وموقع حصين، لذلك اصبحت ملاذاً لكثير من الثوار والمتمردين على حكومة قرطبة.

أما بالنسبة للابواب التي يتضمنها سور مدينة ماردة، فمصادرنا لا تشير لها بشكل مفصل بل ذكرت على سبيل المثال باب ماردة من جهة الغرب ((وكان على بابها مما يلي الغرب حنايات يكون طولها خمسين ذراعاً، متقنة البنيان، عددها ثلثمائة وستون حنية)) [١].

وقد تأثرت العمارة العسكرية الإسلامية بالعمارة الرومانية والبيزنطية التي كانت سائدة في اسبانيا آنذاك فحذت حذوها بحيث أصبح التمييز بينهما امراً صعباً[٢]. ومهما يكن من أمر، فقد كان لاسوار مدينة ماردة وابوابها دور كبير في الحفاظ على امن وسلامة مركز المدينة من أي اعتداء خارجي، قد يؤدي إلى سقوطها، وبذلك اصبحت الأسوار والابواب إحدى اسس العمارة العسكرية المهمة في مدينة ماردة وعامة مدن الأندلس.

رابعاً: الآثار والمعالم الباقية في مدينة ماردة:

لقد ضمت مدينة ماردة بين ثناياها طائفة من المعالم الاثرية الجليلة، ولكن معظمها آثار رومانية[٣] خاصة إذا علمنا أنها مدينة قديمة جداً تأسست في زمن الرومان سنة ٢٤ ق. م، وكانت توصف بأنها مشعل الحضارة الرومانية وبأنها رومة اسبانيا[٤]. فقد ذكر الحميري[٥] أن: ((بها من البناء أثار ظاهرة تنطق عن ملك وقدرة، وتعرب عن نخوة وعز)).

---

(١) الحميري، **الروض المعطار**، ص٥١٨.
(٢) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص٢٢٨؛ الدليمي، **تاريخ مدينة جيان في الأندلس**، ص٢٠٤.
(٣) عنان، **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٠.
(٤) سالم، **تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس**، ص٩٥.
(٥) **الروض المعطار**، ص٥١٨.

وتأتي في مقدمة هذه الآثار القنطرة الرومانية العظيمة التي سبقت الإشارة إليها والتي تقوم فوق أعمدة الجسر المائي التي كانت تحمل قنوات الماء إلى القصر، وتقع هذه القنطرة بجوار الأسوار الرومانية، وهي أسوار عظيمة تضم في داخلها أطلال ما يسمى بالقصبة أو القصر[١].

ومن آثار ماردة الأخرى، القصبة وهي أثر أندلسي بلا ريب، وقد كانت قلعة رومانية وقوطية قديمة، فأنشأ المسلمون على أنقاضها القصبة أو القصر، وجددت هذه القصبة مرات عديدة، ولاسيما في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم، في أوائل القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، ويدل على ذلك نص اللوحة الأندلسية التي سبقت الإشارة إليها، وهي محفوظة الآن بمتحف ماردة الأثري، الذي ضم ايضاً مجموعة من النقود الأندلسية الصغيرة من الدراهم وأمثالها[٢].

كما يوجد في المدينة اثر روماني آخر يأتي بعد القنطرة والقصبة، وهو المسرح الروماني، وهو مسرح حجري عظيم كامل تقريباً يقع خارج المدينة من ناحية الشمال الشرقي، وما زالت به صفوف من المقاعد الحجرية المتدرجة، وامامها المسرح، وهو يشمل مساحة كبيرة، ويقابله من الناحية الأخرى الأثر المسمى (بالامفتياترو) وهو ايضاً ساحة عظيمة تقوم حولها المقاعد المدرجة في نصف دائرة كالمسرح، وتفضي إليها مداخل كثيرة ذات عقود.

وفي وسط المدينة أثر روماني آخر، هو عبارة عن عقد روماني عظيم شاهق يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً، وهو معقود من الحجارة الكبيرة الصلدة ويسمى (عقد تراجان).

وربما تحتل كنيسة ماردة العظمى التي تسمى (سانتا ماريا)، موقع المسجد الجامع في ماردة، وهذه الكنيسة من الكنائس القديمة وهي ذات حجم صغير وعقود قوطية. وإذا كانت مدينة ماردة تخلوا من الصروح الأندلسية الهامة، فهي من الناحية الأخرى تحتفظ في متحفها بلوحة من أهم وأقدم اللوحات الأندلسية. وقد سبقت الاشارة

---

(١) عنان، **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٠، ٣٨٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٨٢

إلى هذه اللوحة وهي تشير إلى حدث تاريخي مهم يتعلق بخروج احد زعماء البربر في ماردة على الأمير الاموي عبد الرحمن بن الحكم(١).

كما وجدت في مدينة ترجالة الواقعة في شمال ماردة وهي من توابعها على مقربة من جنوبي نهر التاجة اطلال حصن اندلسي، وبقية أسوار اندلسية، وقد وجد بداخل هذا الحصن لوحة عربية هي شاهد قبر حسبما ذكر عنان(٢). وفي مدينة قشرش الواقعة غربي ترجالة وشمال بطليوس عثر على اطلال برج اندلسي، وعقود عربية، ومازالت قشرش تحتفظ بطابع العصور الوسطى، وبها أسوار وقصور وابواب قديمة، وتمثل كنيستها القديمة (سان ماتيو) موقع المسجد الجامع(٣).

مما تقدم يتضح أن مدينة ماردة كانت تغص بالاثار ولاسيما الرومانية منها، وقد كانت هذه الآثار كلها قائمة على حالها في العصر الإسلامي حسبما يشير إلى ذلك صاحب الروض المعطار(٤)، وقد استخدمها المسلمون واضافوا لها ما يؤهلها للسكان والاستقرار والادارة، وبالرغم من كونها تعتبر في نظر المسلمين اثاراً وهياكل وثنية، فان المسلمين ابقوا عليها طيلة حكمهم للمدينة، وهو امد استطال أكثر من اربعة قرون. وان دلت هذه الظاهرة على شيء إنما تدل على الأمة الأندلسية المسلمة التي كانت ترفع من تقدير القيمة الفنية والاثرية لتراث العصور الماضية، إلى مرتبة تسمو على الاعتبارات القومية والدينية(٥).

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٨٤.
(٢) **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٦.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٨٦.
(٤) الحميري، ص٥١٨.
(٥) عنان، **الاثار الأندلسية**، ص٣٨٦.



معالم الخارطة نقلاً عن: شوقي أبو خليل، اطلس التاريخ العربي الإسلامي، ط٥، بيروت، دار الفكر المعاصر – دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٢، ص١٠٢.

Architectural Aspects In The Andalusian City Of Marda From Its Conquest Until Its Fall (٩٤-٦٢٨ A.H/٧١٣– ١٢٣٠ A.D)

lect.Dr. Barzan Muyasser Hamid Ahmed

ABSTRACT

This research tackles the urban aspects of an Andalusian city, which is known for its geographical location and the strength of its defensive reinforcements. This city is Marda which was the capital of the west Andalusian, and its represented a living evidence of the Arabi-Islamic civilization. S o, it acquired a prestigious status in architecture and the elegance of construction which reached a high degree of prosperity and development although the roots of the city date back in deep history old ages. Yet, it is considered as an architectural product for the buildings constructed in it, and the architectural arts were diversified and prospered and that indicate its cultural value and the interest of its inhabitants in this respect.